رواد الترجمة

عنوان الخطبة: ذكرى الاحتضار

اسم الخطيب :محمد بن عبد الله السحيم

المصدر/https://www.alukah.net/sharia/62067/1142/

مقدمة الخطبة الأولى

الحمد لله المتفرد بالبقاء، ذي المجد والثناء، والعظمة والكبرياء، أحمده على الآلاء، وأستعينه على البلاء، وأشهد ألا إله إلا الله فاطر الأرض والسماء، وجاعل النور والظلماء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إمام الحنفاء، وسيد الأولياء، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجهم وأحسن الاقتفاء.

نص الخطبة الأولى

أما بعد، فاتقوا الله – عباد الله –

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

أيها المؤمنون! الدنيا ساعات محدودة، وأنفس معدودة، سريعاً ما تمضي وتنقضي، أيام مراحل؛ كل مرحلة تسلمنا لأختها حتى نقف على شفير دار وعتبة أخرى، وتحل بنا ساعة لن نستقدم عنها ولن نستأخر؛ إنها ساعة الاحتضار، ونزول الموت، وخروج الروح، ووداع الدنيا، واستقبال الآخرة. وصفها الله وصفاً تنخلع له القلوب وتَذرف به الدموع فقال: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: 19]، وقال: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة: 83 – 87]، وقال: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: 26 – 30].

أيها المسلمون!

الاحتضار سكرات ذات كرب شديد، تغشّت النبيَّ – صلى الله عليه وسلم –، فجعل يدخل يده في ركوة ماء ويمسح بها وجهه الشريف ويقول: " لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرات " [رواه البخاري (6510)]. وصف هذه السكراتِ كعبُ الأحبار – رحمه الله – حين سأله عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقال: " حدثنا عن الموت "، فقال كعب: " نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، غُصْنٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ أُدْخِلَ فِي جَوْفِ رَجُلٍ، فَأَخَذَتْ كُلُّ شَوْكَةٍ بِعِرْقٍ، ثُمَّ جَذَبَهُ رَجُلٌ شَدِيدُ الْجَذْبِ، فَأَخَذَ مَا أَخَذَ، وَأَبْقَى مَا أَبْقَى " [رواه ابن أبي شيبة (36793)].

وقال سفيان الثوري: " ما من موطن من المواطن أشدَّ علي من سكرة الموت؛ أخاف أن يشدد علي، فأسألَ التخفيف، فلا أُجاب؛ فأفتن ."

ومن شدة لحظة الاحتضار هول المطلع بعدها، قال ابْن عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ – رضي الله عنه – حِينَ طُعِنَ، فَقُلْتُ: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ – يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ –، أَسْلَمْتَ حِينَ كَفَرَ النَّاسُ، وَجَاهَدْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ حِينَ خَذَلَهُ النَّاسُ، وَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ فِي خِلَافَتِكَ اثْنَانِ، وَقُتِلْتَ شَهِيدًا، فَقَالَ: «أَعِدْ عَلَيَّ»، فَأَعَدتُ

عَلَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَوْ أَنَّ لِي مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ « ![رواه ابن أبي شيبة في المصنف (34494) وأحمد في الزهد ص154وسنده إليه صحيح.]

وبكى الحسن البصري عند موته، وقال: " نفس ضعيفة، وأمر مهول عظيم؛ إنا لله وإنا إليه راجعون ."

ولما نزل الْمَوْت بِسُلَيْمَان التَّيْمِيّ قيل لَهُ: أبشر؛ فقد كنت مُجْتَهداً فِي طَاعَة الله -تعالى-، فَقَالَ: لَا تَقولُوا هَكَذَا؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي مَا يَبْدُو لي من الله - عز وَجل -؛ فَإِنَّهُ يَقُول سُبْحَانَهُ: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: 47].

عباد الله!

ومن شدة ساعة الاحتضار ختم الأعمال بها، والبعث عليها، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: " إنما الأعمال بخواتيمها " [رواه البخاري (6493)] ،ويقول: " يبعث كل عبد على ما مات عليه " [رواه مسلم (2878)].

وذاك ما أزعج قلوب الصالحين، بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ تِبْنَةً مِنَ الْأَرْضِ، وَقَالَ: الذُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ سُوءِ الْخَاتِمَةِ. قال ابن القيم – رحمه الله -: " وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى."

أيها الإخوة في الله!

في ساعة الاحتضار تنقشع الغشاوة، وتنجلي الحقائق التي طالما غيبتها الدنيا بملاذها وسكرها؛ ولذا باتت وصايا المحتضرين من نفيس القول، وعميق معناه، وبالغ عظاته؛ لصدورها من صِدقِ نفسٍ وثُقب نظر.

مقدمة الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه وسلم تسليمًا كثيرًا

نص الخطبة الثانية

أيها المؤمنون!

إن لساعة الاحتضار أعمالاً تشرع، تحسن بها الخاتمة، وتزكو بها الروح، ومن تلك الأعمال: الاستعداد لذلك المضطجع بالعمل الصالح، والتحرز من المظالم والمآثم، ومداومة التوبة وتجديدها. قال القعقاع بن حكيم: " قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة "، واحتضر بعضُ الصَّالِحِين فَبَكَتْ امْرَأَته، فَقَالَ: مَا يبكيك؟ قَالَت: عَلَيْك أَبْكِي، قَالَ: إِن كنت باكية فابكي على نَفسك، فَأَما أَنا فقد بَكَيْتُ على هَذَا الْيَوْم مُنْذُ أَرْبَعِينَ سنة.

وبسالف الاستعداد بالصالحات يحب المؤمن لقاء ربه، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: « لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » رواه البخاري ومسلم .

وعند نزول الموت يُغلَّبُ الرجاء على الخوف، ويُحسّن الظن بالله – تعالى –، يقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ «[رواه مسلم (2877)] ،ودخل عَلَى رجل وَهُوَ فِي النزع فَقَالَ: كيف تجدُكَ؟ قال: أرجو اللهَ يا رسولَ اللهِ ! وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقال رسولُ اللهِ لا يجتمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطنِ إلّا أعطاهُ اللهُ ما يرجو، وأمَّنَهُ ممّا يخافُ ".[أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٠١) وصححه الألباني]

والتلفظ بشهادة التوحيد نطقاً وتلقيناً خير أعمال الختام، يقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: " لقِّنوا موتاكم: لا إله إلا الله " [رواه مسلم (917)] ،ويقول: " من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة " [رواه أبو داود (3116) وأحمد في المسند (22534) وصححه الألباني].

نسأل الله تعالى أن يختم لنا بخير وأن يغفر لنا ويتجاوز عنا بمنه وكرمه.